

أدب

## «منام الماء» لخيرات الزين سيرة الحروف

غسان مراد

لكل حرف؟ فلا يمكن إلا لفنّانة خيرات أن تقدم هكذا إنتاج. لا نتحدث عن الشكل، أو اللوحات الفنية، ولكن عن الحكايا المغزولة التي أعطت النص لونا شعرياً. استطراداً، معظم رسائل النصوص إيجابية، كان الكتاب كُتب بفرح من أجل الفرح. في النصوص أصوات عديدة تتكلم كنص «العين بالعين» حيث حوار بين العريشة والعنقود، ونص آخر تتحاور الرمانة مع الرغيف... وأصوات العصفير والأشجار، فخيرات تعبر عن أفكارها بأصوات أخرى، تجسد في أصوات الطيور والأشجار والأزهار...

أما اللوحات الثماني والعشرون، فلها عدة أبعاد. البعد الفني من خلال الألوان ووضع الحرف الذي له ارتباط ببعده الطباعي. فأغلب الأحرف رُسمت على فضاء اللوحة حسب شكلها. في الوسط (ب، ت، ن،...)، على اليمين (ل، و) على الشمال (م)، وضممت الألوان نظراً إلى تشابهها باللون الذي تُعبر عنه، وتسمح برؤية الحرف وبروزه، وتعطي للوحة بعداً بدون زخرفة. ألوان نقيّة، غلب عليها طابع الدفء، إبداعية مع وجود إيقاعات متجانسة مستوحاة من التراب. فقد جرى تسهيل شكل الحرف، لإعطاء الوظيفة حقها. جميع نقاط الحروف عند خيرات الزين بدوّ، ومنحنيات الحرف هلال... والهيل كإشارة مزدوجة في النص، علامة من علامات الترقيم تستخدم كأداة للاحتضان والضمّ؛ احتضان المعاني التي تُوضح ما سبق، كإيد مفتوحة تستقبل الآخر في الأحضان بين هلالين. وقد أعطت خيرات لوحاتها حركة دائرية كمبدأاً للجمالية التي تحددها قوانين الانحناء بدون زوايا. وقد يعتبر هذا الإبداع كنهج معاصر لتصميم الحرف وشكله الكتابي- الفني ذات بعد تعليمي، نهج سخي ومرح في آن. لخيرات حساباتها القمرية في تعداد الحروف؛ كنا نتمنى لو أضافت حرفاً يشوبه الالتباس، اللام الف (لا)، لنرى كيف ستصور خيرات تراوح استقامة الألف مع انحناء اللام لتجسد التشكيل الهلالي المعمول عليه. كنا نعتقد أنّ خيرات فنّانة تشكيلية فقط، ولكن تبين، أنّها أيضاً قاصّة وشاعرة وكاتبة نثر، وبعد...

أما النمط الدلالي للنص، فيرتكز أحياناً إلى التناسق من خلال استعارات استوّصلت من سياقها الأصلي وزرعت في سياق الكتاب النصي. كان نقرأ مثلاً: «عندما أخذت الدنيا عيني أبي العلاء المعري، صار الشجر عيني. أما عن عمر بن أبي ربيعة، فأبي عين لا تمنى أن تكون عينه»، أو «شهرزاد ظهرت شهريار من الشر الكامن في شرايينه، فإن كان للشهوة ألف ليلة وليلة، فللشفغ ألف شهر وشهر». تحتوي الكلمات التي تشكّل كل نص على الحرف الذي تتكلم عنه خيرات. هذا التركيب الدلالي ليس بالسهل إذا ما أردنا إعطاء النص معنى، وفي التركيب لعبة من الأعيب البحث عن المفردات التي تتناسب فيما بينها لتشكّل بنية نصية شعرية متناسقة ذات دلالات مركبة لا تخلو أبداً من رؤية للحياة، إذ نجد في النص الكثير من الرسائل الإيحائية، التي تعبر عن الثقافة والسياسة، والأخلاق والدين. ونتساءل عند قراءة النصوص، أهي سيرة ذاتية للحروف أم قصائد غزل

الدلالية للفقرات في كل نص. وإذا كانت الأصوات حروفاً، ففي الحروف صدق يدخل ويخرج من الأشجان ليحبر عن مكونات الفرد في كل تفاصيلها. حروف لا تخلو من إيماءات حسية باطنية تخرج وتدخل ذاتنا حتى «العظم» لتعكس أسرار نفوسنا وخباياها. الحرف عند الزين، يأتي من المعنى كالجسد من الروح، فالانجذاب إلى الحروف هو انجذاب إلى الجسد، الأول بما فيه من معنى، والثاني بما فيه من روح. سيميائياً للحروف معان عدة، وإذا كانت الحروف، حسب تاريخ الكتابة، قد أخذت شكلها مما تصوّر، وتطورت لكي تصبح اعتباطية وتجريدية، حسب المدارس اللسانية، وعلم السيميائية، إلا أن خيرات أعادت للحروف معانيها الأصلية، كما زودتها بمعان جديدة. فالحرف لم يعد مجرد علامة اعتباطية، بل تعددت أبعاده في النظام اللغوي ليصبح شكلاً من أشكال التعبير الرمزي للعديد من التمثيلات والتصورات الذهنية التي يبنيها الفرد عند تطلعه إلى الحرف.

أبعاداً إنسانية، إذ تقول في «الألف» مثلاً: «حرف كأنه أمير أدمن البحث عن أنثاه»، وكأنها توحى لنا أن الألف يشبه الرجل باستقامة أعضائه والانحناء يشبه الأنثى، وأسرار إغوائتها ودلالها. و«الباء بشوش، ابتسامه يرتقالة»، و«كل الحروف نطقها فوقها أو تحتها، إلا الجيم نطقها في قلبها». في النصوص الكثير من رسائل الحب، فحروف خيرات أقمار ملونة بألوان تشبه معاني الحروف في بعدها الواقعي. كتاب لا يقرأ كما تقرأ الكتب. في أي صفحة، ستجد ما يأخذك إلى عالم آخر، عالم المعاني الهائجة في بحر المعاني وفي حديقة خيرات القمرية. في كل صفحة فقرات عدة، لكل واحدة معناها. لهذا فإن قراءة الكتاب ليست خطية، بل انتقائية... تشبه عملية البستنة، التي تتناسب مع القراءة على الإنترنت وتويتر والفيسبوك. هو نص منسوج بخيوط المعاني المترابطة في الشكل حروفاً، وفي المعنى منسوج من روابط الحقول



## حين تتجلى... وتلبس تيجان الملوك

رؤوف قبيسي

كتابة النثر العربي، وعن تقاليد أي لغة أخرى على حد علمنا. جاءت بعض السطور أيضاً كأنها خضعت للحروف خضوعاً كاملاً وبأي طريقة، ما جعل المعاني تغور تحت ستار من الغموض والتجسيم، وبدت غير مالوفة كما في باب حرف الجيم، حيث استخدمت كلمة جرس لفعل التجويد، كما في جملة «كم من جرس كنيسة جود قرأنا وكمن من مؤذنة جامع رتل إنجيلاً». لا لشيء، إلا لأن في الجرس حرف جيم! هناك أيضاً كلمات زائفة في كثير من السطور كان من البلاغة أن تحذف، مثل كلمة «جامع» في الجملة المذكورة، إذ يكفي أن نقول «كم من مؤذنة رتل إنجيلاً»، بدلاً من إضافة كلمة جامع، لأن المآذن لا تكون أصلاً إلا في الجوامع!

عليه نتساءل: هل أجادت هذه الفنّانة الكاتبة كل الإحادة؟ نحتكم مجدداً إلى أحكام النسبية في ما يتصل بالصور والنصوص معاً. لكن الشيء الذي لا شك فيه ولا خلاف عليه، هو أن خيرات الزين قدمت جديداً، لا عهد لنا به من قبل، لا من قريب ولا من بعيد. المؤلفة مصورة، تعرفها معارض بيروت ووسائل إعلامها، وهي في كتابها هذا تطبع نثراً غريباً، وتصب فيها قدراً من الغواية ليس بقليل، ولا نبالغ إذا قلنا إن «منام الماء» بما فيه من جديد، رسماً ونصاً، فاق في شكله ومضمونه كتباً كثيرة تحفل بها أسواق الكتب، ولو أنه قصر في بلوغ الدرجة العالية من الكمال. عليه نقول، إننا كنا نود لو أن الفنّانة الكاتبة اختارت عنواناً آخر لهذا الكتاب القيم، فحرف اللام حين يتردد في كلمتين، ثقيل على السمع ثقيل على القراءة. كان من الأنسب كذلك، لو أنها راعت علامات الترقيم والتشكيل، بحيث تكون النقطة مكان الفاصلة، والفاصلة النقطية مكان الفاصلة العادية، والفاصلة العادية حيث يجب النقطة أن تكون، وهذا ظاهر في صحائف مختلفة من الكتاب. كان يجب مراعاة كتابة الهمزة أيضاً، مثل همزة القطع في كلمة «إبنتي» المدونة في سطور الإهداء، إذا كان يجب أن تحذف، أو تكون موصولة. في النص أيضاً، نرى النقاط الثلاث (...) يتردد شكلها في كثير من السطور، وهذا لا لزوم له ولا ضرورة، وفيه استخفاف بعقل القارئ ومخيلته، فضلاً عن أنه خارج على تقاليد

وكان من المتوقع أن يحمل كتاب من وضعها صوراً من ريشتها، لكن المفاجأة، أنه ضم إلى جانب الصور فصلاً من النثر. في هذا الكتاب، تصور خيرات الزين حروفاً، وتكتب نصوصاً مطرزة بالحروف ذاتها، فإذا طالعك حرف الدال على سبيل المثال، وجدت نصاً على هذا النحو: «الدال هي أول الدنيا والدين، وهي آخر الجسد والأبد. دخلت من دون دليل إلى منبع الدر. هي قلب آدم ودليله، وهي الدواء لكل داء، وهي الدواء لكل قلم دافق». وإذا طالعك حرف الشين، جاء النص كالتالي: «الشين تحمل شراب الشفاء في شهدها، ومن شميمها شم النيم، يشعل شذاها شوق العاشق. تمر كشبح، وتستمر كمشهد في عشايا الصيف. ترافق الشخص من شبابه إلى شيخوخته. فمن شب على شيء، شاب عليه. إنها شيق الشمعة عند اشتداد الظلام، وابتسامه الفجر حين بشرته بالشروق. ليس تكريماً لحرف الشين أن يكون مدخل الشعر، فشريعة الشعر أولها الشعور، كما شرارة الضوء، بداية شعاعه»، وقس على ذلك مع بقية الحروف.

في «منام الماء» تتجلى الحروف وتكتسب رفعة وأبهة، وتبدو كأنها في مسابقة من مسابقات ملكات الجمال، والجمال هنا ليس شكل الحرف وحده مصوراً بريشة الفنّانة، بل أيضاً بما يختزنه من معان حين ينضم إلى بقية الحروف، فيؤلف كلمة ومعنى، لكنه يبقى مع ذلك، متفرداً بذاته مستقلاً، ومتوجاً بعرضه. لا يمكن الناظر في صور الكتاب، إلا

الكتب تسعد وتشقى كما يقول ميخائيل نعيمة. هي مثل البشر، بعضها يموت ساعة الولادة، وبعضها يفنى شاباً، وبعضها يشيخ، ثم تطويه المنيا كأنه لم يكن. من الكتب ما يموت مع موت صاحبه، ومنها ما تبقى فيه نسمة الحياة، بعد العودة من جنازة الكاتب، فيبقى حياً في ذاكرة جيل أو جيلين، وربما ثلاثة أجيال وأكثر، ومنها الذي يبلغ درجة فائقة من الإثارة، فتخلع الجموع عليه عبادة القداسة، كأنه وحى يوحى، ويبقى حياً على الورق وفي الصدور، ما دام الناس أحياء يُرزقون. من الكتب ما يُشرى بداعي المجاملات، كما الأمر في معارض الكتب، ومنها الذي يخاطب الأزمنة على اختلافها، ولا يخاطب زمناً محدداً، ويبقى جديراً بالقراءة متى كان مضمونه جيداً وجديداً. وفي صناعة النشر دوماً مفاجآت، فقد تجد شاعراً يفاجتك جديده، فتجد أنه ليس بمستوى قديمه من الجودة والإتقان، أو قد تجد جديده قد خالف قديمه أشد المخالفة، وتفوق عليه، إلى درجة تحسب أن الشاعر الذي نظم هذه القصائد، هو غير الشاعر الذي طالعنا ديوانه في ما سبق.

أحسنت في اختيار ورق الكتاب، والغلاف والألوان

القارئ ما في نصوصها من نسج مستعار، فإذا بالجسد القديم قد ارتدى أردية جديدة، والكتابة صبية تصور الحروف بنضارة، وتداعبها بغمج ودلال، ترسمها وتكسوها بزخرف لا تكلف فيه، وبغفوية تنساب كما أدب السهل المتفتح.

أحسنت خيرات الزين خيراً في اختيار ورق الكتاب، والغلاف والألوان، وفي ترتيب صور الحروف وسرد سيرها الذاتية بكلمات مقتضبة. خالفت نهج كثير من دور النشر التي تطرح كتباً تشق على العقول والأبصار.